العجوزان

ـ ٤ ـ

تتمَّة

قال محدِّثنا : وكنتُ قد ضِقْتُ بهذه اللَّجاجة[١] الفلسفيَّة ، ورأيتُني مُضْطَغِناً[٢] على الشَّيخين معاً ، فقلت للعجوز (ن) : حدِّثني (رحمك الله !) بشيءٍ من قديمكما ، فأنتما اختصارٌ لكلِّ ما مرَّ من الحياةِ يُسْتَدلُّ به على أصله المطوَّل إلا في الحبِّ . . . وما زلتُما في جَدِّ الحديث تعبثان بي منذُ اليوم ، فقد عَدَلتما بي إلى شأنكما ، ورأيكما في القديم ، والجديد ، وبقي أن أميلَ بكما مَيْلةً إلى سنة ١٨٩٥ ، وقد والله ! كاد ينتحر قلبي يأساً من خبر (كاترينا ، ومرغريت) ، ولكأنَّك تخشى إذا أعلمتني خبرَ صاحبتك هذه وهي من وراء أربعين سنة ؛ ما تخافه من رجلٍ سَيَفْجَؤك معها في الخلوة على حالٍ من الرِّيبة ، فيأخذك « متلبِّساً بالجريمة » كما تقولون في لغة المحاكم .

قال : فضحك العجوزان ، وقال (ن) : لا والله يا بنيَّ ! ولكنِّي أقول ما قال ذلك الحكيم العربيُّ لقومه ؛ وقد بلغ مئتي سنة : « قلبي مُضغةٌ من جسدي ، ولا أظنُّه إلا قد نحَل سائر جسدي »[٣] واعلم يا بنيَّ ! أنَّه إذا ذهب الحبُّ عن الشَّيخ ؛ بقي منه الحنان يعمل مثل عمله ؛ فيحبُّ العجوز مكاناً ، أو شيئاً ، أو معنىً ، أيَّ ذلك كان ؛ ليُعيده ذلك إلى الدُّنيا ، أو يُبقيه فيها (بقدر الإمكان) .

فضحك الأستاذ (م) وقال : ولعلَّ ثرثرة العجوز (ن) هي الآن معشوقة العجوز (ن) .

---

(١) « اللجاجة » : العناء في الخصومة ، والتمادي فيها .

(٢) « مضطغناً » : حاقداً .

(٣) هو أكثم بن صيفي حكيم العرب ؛ قالها لقومه في سفرهم إلى النُّعمان بن المنذر كيلا يتكلَّموا عليه في حيلةٍ ، ولا منطقٍ . ويقال : إنَّه عاش ثلاثمئة وثلاثين سنة . وفي معنى السَّنة عن العرب كلامٌ ليس هذا موضعه . (ع) .

ثمَّ قال : وكلُّ شيءٍ يرقُّ في قلب الرَّجل الهرِم ، ويحوِّل وجهه كأنَّه لا يطيق أن ينظر إلا معناه الغليظ ؛ ولا بدَّ أن يخرج العجوز من معاني الدُّنيا قبل أن يخرج من الدُّنيا ؛ ولهذا لا يهنأ الشَّيخ إلا إذا عاش بأفكار جسمه الحاضر ، وقدَّر الأمور على ما هو فيه ، لا على ما كان فيه ؛ والفرق بين جسمه الحاضر وبين جسمه الماضي : أنَّ هذا الماضي كانت تحمله أعضاؤه ، فهو مجتمعٌ من أعمالها ، وشهواتها ، ماضٍ في تحقيق وجودها ومعانيها ؛ أمَّا الحاضر ؛ أمَّا الجسم الهرم ؛ فهو يشعر أنَّه يحمل أعضاءَه كلَّها ، وكأنَّها ملفوفةٌ في ثيابه كمتاع المسافر قبل السَّفر . . وكأنَّ بعضها يسلِّم على بعضٍ سلام الوداع ، يقول : تفارقني ، وأفارقك(١) .

فتململ الأستاذ (م) وقال : أُفٍّ لك ، ولما تقول ! لا جرَم : أنَّ هذه لغة عظامك ؛ التي لا صلابة فيها ، فمن ذلك لا تجيء معانيك في الحياة إلا واهنةً ناحلةً ، فقدت أكثرها ، وبقي من كلِّ شيءٍ منها شيءٌ عند النِّهاية ؛ أليس في الهَرَم إلا أن يبقى الجسم ، ليكون ظاهراً فقط كعَمْشوش العنقود(٢) بعد ذهاب الحبِّ منه ، يقول : كان هنا ، وكان هنا ؟

ألا فاعلم يا (ن) أنَّ هذه الشَّيخوخة إنَّما هي غلبةُ روحانيَّة الجسم على بشريَّته ، فهذا طورٌ من أطوار الحياة ، لا تدعه الحياة إلا وفيه لذَّته ، وسروره ، كما تصنع بسائر أطوارها ؛ غير أنَّ لذَّاته بين الرُّوح والجمال ، ومسرَّاته بين العقل والطَّبيعة ، وكلُّ ما نقص من العمر وجب أن يكون زيادةً في إدراك الرُّوح ، وقوَّتها ، وشدَّتها ، ونورها ؛ وقد قيل لبعض أهل هذا الشَّأن ـ وكان في مرض موته ـ : كيف تجد العلَّة ؟ فقال : سلوا العلَّة عنِّي كيف تجدني ؟

وإنَّما تثقل الشَّيخوخة على صاحبها ؛ إذا هي انتكست فيه ، وكانت مراغمةً بينه وبين الحياة ، فيطمع الشَّيخ فيما مضى ، ولا يزال يتعلَّق به ، ويتسخَّط على ذهابه ،

---

(١) في الحديث الشَّريف : « إنَّ العبد ليعالج كُرَبَ الموت ، وسكراتِ الموت وإنَّ مفاصله ليسلِّم بعضها على بعضٍ ، تقول : عليك السَّلام ؛ تفارقني ، وأفارقك إلى يوم القيامة » . (ع) .

قلت : الحديث ذكره ابنُ عراق في تنزيه الشريعة (٢/ ٣٧٥) ، والسيوطي في شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (٦٦) ، وانظره في كنز العمال (١٥/ ٥٦٣) .

(٢) هو ما يبقى من العنقود بعد أكل ما فيه من الحبِّ . (ع) .

ويتصنَّع له ويتكلَّف أسبابه ، وقد نسي : أنَّ الحياة ردَّته طفلاً كالطِّفل ، أكبر سعادته في التَّوفيق بين نفسه وبين الأشياء الصَّغيرة البريئة ، وأقوى لذَّته أن يتَّفق الجمال الَّذي في خياله ، والجمال الَّذي في الكون ، وإنَّه لكما قلت أنت : لا يهنأ الشَّيخ إلا إذا عاش بأفكار جسمه الحاضر .

وما أصدق ، وأحكم هذا الحديث الشَّريف ! « إنَّ الله تعالى بعدله ، وقسطه جعل الرَّوح ، والفرح في الرِّضا واليقين ، وجعل الهمَّ ، والحزن في الشَّكِّ والسُّخط »[1] . فهذه هي قاعدةِ الحياة : لا تعاملك الحياة بما تملك من الدُّنيا ، ولكن بما تملك من نفسك ، وبذلك تكون السَّعادة في أشياء حقيقةً ممكنةً موجودةً ، بل تكون في كلِّ ما أمكن ، وكلِّ ما وُجد ؛ وإذا كان الرِّضا هو الاتِّفاق بين النَّفس وصاحبها ، وكان اليقين هو الاتِّفاق بين النَّفس وخالقها ؛ فقد أصبح قانون السَّعادة شيئاً معنويّاً من فضيلة النَّفس ، وإيمانها ، وعقلها ، ومن الأسرار التي فيها ، لا شيئاً مادِّياً من أعضائها ، ومتاعها ، ودنياها ، والأخيلة المتقبِّلة عليها .

* * *

فأطرق العجوز (ن) قليلاً ، ثمَّ قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم : ٤] ، ألا ما أحكم هذه الآية ! فوالله ! إنْ قرأت ، ولا قرأ النَّاس في تصوير الهَرَم الفاني أبدع منها ، ولا أدقَّ ، ولا أوفى ، ألا تحسُّ : أنَّ قائلها يكاد يسقط من عجفٍ ، وهُزالٍ ، وإعياءٍ ، وأنَّه ليس قائماً في الحياة قيامه فيها من قبل ، وأنَّ تناقض هذه الحياة قد وقع في جسمه ، فأخلَّ به ، وأنَّ معاني التُّراب قد تعلَّقت بهذا الجسم ، تعمل فيه عملها ، فأخذ يتفتَّت كأنَّما لمس القبرُ عظامَه وهو حيٌّ ، وأنَّه بهذا كلِّه أوشك أن ينكسر انكسار العظم بلغ المِبردُ فيه آخرَ طبقاته ؟

قال محدِّثنا : فقلت له : تُرى لو أنَّ نابغةً من نوابغ التَّصوير في زمننا هذا تناول بفنِّه ذلك المعنى العجيبَ ، فكتبه صورةً ، وألواناً ، لا أحرفاً ، وكلماتٍ ؛ فكيف تراه كان يصنع ؟

---

(١) رواه ابنُ أبي الدُّنيا في الرضا عن الله (٩٣) ، وفي اليقين (٣٢) ، والطبراني في المعجم الكبير (٤/ ١٠٥) ، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٢١ و٧/ ١٣٠) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٠٣ ـ ٢٠٥) .

قال : كان يصنع هكذا : يرسم منظر الشِّتاء في سماءٍ تعلَّق سحابُها كثيفاً متراكباً بعضُه على بعضٍ ، يخيِّل أنَّ السَّماء تدنو من الأرض . وقد سدَّت السُّحبُ الآفاقَ ، وأظلم فيها الجوُّ ظلامَه تحتَ النَّهار المغطَّى ، واستطارت بينهما وشائعُ من البرق ، ثمَّ يترك من الشَّمس جانبَ الأفق لمعةً كضوءِ الشَّمعة في فتْقٍ من فُتوق السَّحابِ ، ثمَّ يرسل في الصُّورة ريحاً باردةً هوجاءَ يدلُّ عليها انحناءُ الشَّجر ، وتقلُّب النَّبات ؛ ثمَّ يرسم رجالاً ، ونساءً يغلي الشَّباب فيهم غليانه من قوَّةٍ ، وعافيةٍ ، وحبٍّ ، وصبابةٍ ، وتغلي فيهم أفكارٌ أخرى . . . وهم جميعاً في هيئة المسرعين إلى مرقصٍ ؛ وهم جميعاً من المجدِّدين . . .

ثمَّ يرسم يا بنيَّ ! في آخرهم (على بُعدٍ منهم) عمَّك العجوز (ن) ، يرسمه كما تراه ، منحلَّ القوَّة ، منحني الصُّلب ، مُرعَشاً ، مُتزلزلاً متضعضعاً ؛ قد زعزعته الرِّيح ، وضربه البرد ، وخنقته السُّحب ، وله وجهٌ عليه ذبولُ الدُّنيا ، يُنبئ : أنَّ دمه قد وضع من جسمه في برادة ، والكونُ كلُّه من حوله ومن فوقه أسباب روماتزم .

ثمَّ يصوِّره وقد وقف هناك ساهماً كئيباً ، رافعاً رأسه ينظر إلى السَّماء .

* * *

قال المحدِّث : وضحكنا جميعاً ، ثمَّ قال الأستاذ (م) : لعمري ! إنَّ هذه الحياة الآدميَّة كالآلة صاحبها مهندسها ، فإن صلُحت ، واستقامت ؛ فمن عمله بها وحياطته لها ، وإن فسدت ، واختلَّت ؛ فمن عبثه فيها ، وإهماله إيَّاها ، وليس على الطَّبيعة في ذلك سبيلُ لائمة ؛ والشَّيخ الضَّعيف ليس في هذه الدُّنيا إلا الصُّورة الهزليَّة لمفاسد شبابه ، وضعفه ، ولينه ، ودَعته ، تظهرها الدُّنيا ؛ ليسخر من يسخر ، ويتَّعظ من يتَّعظ .

قال (ن) : أكذلك هو يا أستاذ ؟ !

قال الأستاذ : بل هي الصُّورة الجدِّيَّة من هذه الحياة الباطلة ؛ الَّتي دأْبُها ألا تصرِّح عن حقيقتها إلا في الآخر ، فتظهرها الدُّنيا ليجلَّ الحقيقة من يجُلُّها ، وليس إلا بهذه الطَّريقة يُعرف من خراب الصُّورة خرابُ المعنى .

قال العجوز (ن) : آه من إجلال الشَّيخوخة ، واحترام النَّاس إيَّاها ! إنَّهم يرونه احتراماً للشَّيخ ، والشَّيخ لا يراه إلا تعزيةً . وما الأشياخُ الهرْمَى إلا جنازاتٍ

قبل وقتها ، لا توحِي إلى النَّاس شيئاً غير وحي الجنازة من مهابةٍ وخشوعٍ .

قال الأستاذ : إنَّما أنت دائماً في حديث نفسه مع نفسك ، ولم كنت نهراً يا مُستنقع ! لما كان في لغتك هذه الأحرف من البعوض ؟ .

قال العجوز الظَّريف : إنَّ هذا ليس من كلام الفلسفة ؛ التي نتنازعها بيننا ؛ تردُّ عليَّ ، وأردُّ عليك ، ولكنَّه كلام القانون ؛ الذي لك وحدك أن تتكلَّم به أيُّها القاضي !

قال (م) : صرِّح ، وبيِّن ، فما فهمنا شيئاً !

قال العجوز : هذا كلامٌ قلته قديماً في حادثةٍ عجيبةٍ ؛ فقد رُفعت إليَّ ذات يومٍ قضيَّة شيخٍ هَرِمٍ كان قد سرق دجاجةً ؛ وتوسَّمتُه ، فإذا هو من أذكى النَّاس ، وإذا هو يجلُّ عن موضعه من التُّهمة ، ولكن صحَّ عندي : أنَّه قد سرق ، وقامت البيِّنة عليه ، ووجب الحكم ؛ فقلت له : أيُّها الشَّيخُ ! ما تستحي وأنت شائبٌ أن تكون لصّاً ؟ .

قال : يا سيِّدي القاضي ! كأنَّك تقول لي : ما تستحي أن تجوع ؟

فوَرَدَ عليَّ من جوابه ما حيَّرني ! فقلت له : وإذا جعت ؛ أما تستحي أن تسرق ؟

قال : يا سيِّدي القاضيَ كأنَّك تقول لي : وإذا جعت ؛ أما تستحي أن تأكل ؟

فكانت هذه أشدَّ عليَّ ، فقلت له : وإذا أكلت أما تأكل إلا حراماً ؟

فقال : يا سيِّدي القاضي ! إنَّك إذا نظرت إليَّ محتاجاً لا أجد شيئاً ، لم ترني سارقاً حين وجدت شيئاً .

فأفحمني الرَّجل على جهله ، وسذاجته ، وقلت في نفسي : لو سرق أفلاطون لكان مثل هذا ؟ فتركت الكلام بالفلسفة ، وتكلَّمت بالقانون ؛ الذي لا يملك الرَّجل معه قولاً يراجعني به ، فقلت : ولكنَّك جئت إلى هذه المحكمة بالسَّرقة ، فلا تذهب من هذه المحكمة إلا بالحبس سنتين .

* * *

قال محدِّثنا : وأرمضني هذا العجوز الثرثار وملأ صدري ؛ إذ ما برح يديرني ، وأديره عن (كاترينا ، ومرغريت) . ورأيت كلَّ شيءٍ قد هَرِم فيه إلا لسانه ؛

فحملني الضَّجر ، والطَّيش على أن قلت له : وهب القضيَّة كانت هي قضيَّة (كاترينا) وقد رفعت إليك متَّهمةً ، أفكنت قائلاً لها : جئت إلى المحكمة بالسَّرقة ، فلا تذهبين من المحكمة إلا بالحبس سنتين ؟

وجرت الكلمة على لساني ، وما ألقيت لها بالاً ، ولا عرفت لها خطراً ، فاكفهرَّ القاضي العجوز وتربَّد وجهه غضباً ، وقال : يا بغيض ! أحسبتني كنت قائلاً لها : جئت إلى المحكمة بالسَّرقة ، فلا تذهبين من المحكمة إلا بالقاضي . . . ؟

وغضب الأستاذ (م) وقال : ويحك ! أهذا من أدبكم الجديد الذي تأدَّبتم به على أساتذةٍ منهم الفجرة ؛ الذين يُكذِّبون الأنبياء ، ولا يؤمنون إلا بدين الغريزة ، ويسوِّغونكم مذاهبَ الحمير ، والبغال في حرية الدَّم . . ؟ أما إنِّي لأعلم أنَّكم نشأتم على حرِّيَّة الرَّأي ، ولكن الكلمة بين اثنين لا تكون حرَّةً كلَّ الحرِّيَّة إلا وهي أحياناً سفيهةٌ كلَّ السَّفاهة ، كهذه القولة التي نطقت بها .

لقد كان النَّاس في زمننا الماضي أناساً على حدَّةٍ ، وكانت الآداب حالاتٍ عقليَّةً ثابتةً ، لا تتغيَّر ، ولا يجوز أن تتغيَّر ، وكان الأستاذ الكافر بينه وبين نفسه لا يكون مع تلاميذه إلا كالمومس : تجهد أن تربِّي بنتها على غير طريقتها !

قال المحدِّث : فجلجلت[1] ، وذهبت أعتذر ، ولكن العجوز (ن) قطع عليَّ ، وأنشأ يقول وقد انفجر غيظه : لقد تمَّت في هؤلاء صنعة حرِّيَّة الفكر ، كما تمَّت من قبل في ذلك الواعظ المعلِّم القديم ؛ الذي حدَّثوا عنه : أنَّه كان يقصُّ على النَّاس في المسجد كلَّ أربعاء[2] ، فيعلِّمهم أمورَ دينهم ، ويعظهم ، ويحذِّرهم ، ويذكِّرهم اللهَ وجنَّته ، ونارَه ؛ قالوا : فاحتبس عليهم في بعض الأيام ، وطال انتظارهم له ، فبينما هم كذلك إذ جاءهم رسوله ، فقال : يقول لكم أبو كعب : انصرفوا فإنِّي قد أصبحت مخموراً .

هذا القاصُّ المخمور هو عند هؤلاء السُّخفاء إمامٌ في مذهب حرِّيَّة الفكر ، وفضيلته عندهم أنَّه صريحٌ غير منافقٍ . . وكان يكون هذا قولاً في إمام المسجد لولا

---

(١) « جلجلت » : تحرَّكت .

(٢) هو أبو كعب القاصُّ ؛ ذكره الجاحظ في « الحيوان » ، وقال : إنَّه كان يقصُّ كلَّ أربعاء في مسجد عتَّابٍ بالبصرة . (ع) .

أنَّه إمام المسجد ؛ غير أنَّ حرِّيَّة الفكر تبني دائماً في كلِّ ما تبني على غير الأصل ، وعندها : أنَّ المنطق الذي موضوعه ما يجب ليس بالمنطق الصَّحيح ؛ إذ لا يجب شيءٌ ما دام مذهبها الإطلاق ، والحرِّيَّة .

كل مفتونٍ من هؤلاء يتوهَّم : أنَّ العالم لا بدَّ أن يمرَّ من تفكيره كما مرَّ من إرادة الخالق ، وأنَّه لا بدَّ له أن يحكم على الأشياء ولو بكلمةٍ سخيفةٍ تجعله يحكم ، ولا بدَّ أن يقول : (كن) وإن لم يكن إلا جهله ؛ ومذهبه الأخلاقيُّ : اطلب أنت القوَّة للمجموع ، أما أنا فألتمس لنفسي المنفعة ، واللَّذَّة ! ويحسبون : أنَّهم يحملون المجتمع ؛ فإنَّهم ليحملونه ولكن على طريقة البراغيث في جناح النَّسر .

قال (م) : وكيف ذلك ؟

قال : زعموا : أنَّ طائفةً من البراغيث اتَّصلت بجناح نَسْرٍ عظيمٍ ، واستمرأته ، ورتَعَتْ فيه ، فصابرها النَّسر زمناً ، ثمَّ تأذَّى بها ، وأراد أن يرميها عنه ، فطفق يخفق بجناحيه يريد نفضها ، فقالت له البراغيث : أيُّها النَّسر الأحمق ! أما تعلم أنَّنا في جناحيك لنحملك في الجوّ . . . ؟

أمَّا أساتذة هذه الحرِّيَّة الدِّينيَّة الفكريَّة الأدبيَّة ، فقد قال الحكماء : إنَّ بَعْرة من البَعْر كانت معلمةً في مدرسةٍ .

قال (م) : وكيف ذلك ؟

قال : زعموا : أنَّ بعرةَ كبشٍ كانت معلمةً في مدرسة الحصى ، فألَّفت لتلاميذها كتاباً أحكمته ، وأطالت له الفكرة ، وبلغت فيه جهدَ ما تقدر عليه ؛ لتُظهر عبقريَّتها الجبارة ، فكان الباب الأكبر فيه : أنَّ الجبل خرافةٌ من الخرافات ، لا يسوغ في العقل الحرِّ إلا هذا ، ويصحُّ غير هذا في المنطق . قالت : والبرهانُ على ذلك : أنَّهم يزعمون : أنَّ الجبل شيءٌ عظيمٌ ، يكون في قدر الكبش الكبير ألفَ ألف مرَّة ؛ فإذا كان الجبل في قدر الكبش ألفَ ألفِ مرَّةٍ فكيف يمكن أن يَبعرَه الكبش . . . ؟

قال الأستاذ (م) : هذا منطقٌ جديدٌ سديدٌ لولا أنَّه منطق بعرةٍ !

قال (ن) : وكلُّ قديمٍ له عندهم جديدٌ . فكلمة (رجل) قد تخنَّثت ، وكلمة (شاب) قد تأنَّثت ، وكلمة (عفيفة) قد تدنَّست ، وكلمة (حياء) قد تنجَّست ؛

والزَّمن الجديد ألا يعرف الطَّالب في هذا العام ماذا تكون أخلاقه في العام القادم . . . والحياة الجديدة أن تتقن الغشَّ أكثر ممَّا تتقن العمل . . . والذِّمَّة الجديدة : أنَّ مال غيرك لا يسمَّى مالاً إلا حين يصير في يدك . . . والصِّدق الجديد أن تكذب مئة مرَّةٍ ، فعسى أن يصدِّق النَّاس منها مرَّة . . . ثمَّ الإنسان الجديد ، والحبُّ الجديد ، والمرأةُ الجديدة ، والأدبُ الجديد ، والدِّين الجديد ، والأبُ الجديد ، والابن الجديد ؛ وما أدري ، وما لا أدري .

قالوا : (السُّوبرمان) ، وتنطَّعوا في إخراج المخلوق الكامل بغير دينه ، وأخلاقه ، فسخرت منهم الطَّبيعة فلم تخرج إلا النَّاقص أفحش النَّقص ، وتركتهم يعملون في النَّظريَّة ، وعملت هي الحقيقة .

* * *

قال محدِّثنا : ونهض العجوز (ن) وهو يقول : تباركت ، وتعاليت يا خالق هذا الخلق ! لو فهموا عنك ؛ لفهموا الحكمة في أنَّك قد فتحت على العلم الجديد بالغازات السَّامَّة .

قال : ولمَّا انصرف العجوز ، قلت للأستاذ (م) : ولكن ما خبر (كاترينا) و(مرغريت) وسنة ١٨٩٥ ؟

قال : أيُّها الأبله ، أما أدركتَ بعدُ : أنَّ العجوزين قد سخرا منك بأسلوب جديدٍ ؟

* * *